نظرات بيانية في قصيدة جعفرية
« دار الحبيب أحق أن تهواها »

دكتور/ على عبد الحميد أحمد عيسى
مدرس البلاغة والنقد بالكلية

نبذة موجزة عن الامام الجعفرى(١) :

هو فضيلة الشيخ صالح محـمد الجعفرى ، يتصل نسبه العالى بالإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الإمام الحسين — رضى الله عنهم جميعا •

ولد — رضى الله عنه — ببلدة دنقلا بالسودان الشقيق فى الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ألف وثلاثمائة وثمان وعشرين من الهجرة ، وبها حفظ القرآن وأتقنـه ، ثم وفـد إلى مصر ليتلقى العلوم بالأزهر الشريف ، فتلقى العلم به عن نخبة من العلماء ••• منهم : الشيخ محمد إبراهيم السمالوطى ، والشيخ محمد بخيت المطيعى ، والشيخ حبيب الله

---

(١) ينظر ترجمتـه فى :

— الكنز الثرى فى مناقب الجعفرى

— مقدمة درس الجمعة ج ١

— السيرة الذاتية لسيدى الشيخ صالح الجعفرى

— مقدمة الصلوات الجعفرية فى الصلاة على خير البرية — تأليف الشيخ عبد الغنى صالح الجعفرى — نشر دار جوامع الكلم •

* ننبه الى أن المراد بالبيان هنا معناه العام كما هو عند الامام عبد القاهر •

الشنقيطى ، والشيخ يوسف الدجوى ، والشيخ على الشايب ، والشيخ عبد الرحمن عليش ، وغيرهم كثير ... - رضى الله عنهم - .

وقد كان لهؤلاء الشيوخ أثر عظيم فى سعة علم الشيخ ، مع ما وهبه الله من ذكاء وقوة حافظة ، فأكب على دروسه وجاهد وثابر ، حتى نال الشهادتين : العالية والعالمية .. له مؤلفات عدة طبع منها حتى الآن :

- ديوان الجعفرى .. اثنا عشر جزءا ..
- فتح وفيض وفضل من الله فى شرح كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله .
- درس الجمعة بالأزهر الشريف .. سبعة أجزاء ..
- الإلهام النافع لكل قاصد على رسالة القواعد ..
- المعانى الرقيقة على الدرر الدقيقة المستخرجة من بحر الحقيقة .
- الفوائد الجعفرية من الأحاديث النبوية ..
- أسرار الصيام ..
- المنتقى النفيس ..

وفى مساء الإثنين الثامن عشر من جمادى الأولى سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وألف انتقل الإمام الجعفرى إلى جوار ربه راضيا مرضيا ...

قصيدة الإمام الجعفرى : « دار الحبيب »

● يا رب صـل على النبى محـــمد
مقبولة تهـــدى له يرضـــاها

١ ـ دار الحبيب أحـــق أن تهـواها
وتحن من شـــوق إلى ذكراها

٢ ـ دار بهـا خـير الأنام محـــمد
يا ســـعد من نال المنـى برؤاها

٣ ـ دار بها نزل الكتـاب مفصـــلا
يتلى على خـــير البرية طـــه

٤ ـ دار بها جبـريل يمشى راجـــلا
شرفت به الغـــبراء إذ وافـاها

٥ ـ دار بها بيت النبى محـــــمد
بدر الوجـود بنوره جـــــلاها

٦ ـ والمسـك فاح بروضـــة نبويـة
يا سـعد من وافى بديع ســـناها

٧ ـ فإذا وقفت لـدى الضريح مسـلما
شاهدت شمسا فى العلا وضـحاها

٨ ـ ونظـرت بالقلب السليم محببـــا
ورويت من كأس يفوح شـــذاها

٩ — ودهشت من ذاك الجـلال وهيبة
ونظـرت عشـاقا سـمعت بكاها

١٠ — ورأيت الدمع السـخى بأعـين
قرت لدى الفيحـاء من رؤيـاها

١١ — قالوا السلام عليك يا خير الورى
سـمع التحيـة منهـم رداها

١٢ — يا سعد من أهدى السلام لأحمـد
عنـد المقـام بحالة يرضـاها

١٣ — نال الشفاعة والكرامة مذ غـدا
ضيف الذى وسـع البرية جـاها

١٤ — سـبق الأوائل والأواخر فضـله
روح المحـب لروضـة ناداها

١٥ — لبت نـداء المصـطفى وتأهبت
لزيارة المختـار فى مسـراها

١٦ — يا طيبـة طابت بأكرم مرسـل
طابت بـه حقـا وطاب ثـراها

١٧ — سكن النبى بها فصـارت روضـة
تحكى جنـان الخلد فى رؤياهـا

١٨ — يا حبذا دار بهـا شمس الهـدى
فاقت على شمس الدنا وضـحاها

١٩ ـ شمس النهار تغيب والشمس التى
فى طيبـــــة تبقى بنور ســـناها

٢٠ ـ تهـدى القلوب بنـورها وكمالهـا
ما ضـل من يهـدى بنور هـداها

٢١ ـ فإذا وصلت إلى المدينـــة زائرا
عـرج على الفيحـاء فى عليـاها

٢٢ ـ وقل السلام عليك يا خـير الورى
يا خير من وطىء الثرى يا طـــه

٢٣ ـ يا رحمـــة الله التى قـد أرسلت
للعـالمين وللورى أهـــــداها

٢٤ ـ ما خـابت الروح التى قـد أقبلت
تهـدى السلام عليك يا بشـــراها

٢٥ ـ روح أتتك من البعـــاد مشوقة
ترجـو الرضـــا لمـا أتت عمّاها

٢٦ ـ وشـكت إليك من الزمان وحـاله
مـع شـــكرها الله فى شـــكواها

٢٧ ـ علمت بأنك حصـــنها ومـلاذها
فأتت إليـك لعلهـــا ترضـاها

٢٨ ـ فلأنت أكرم من أتتـك وفـودها
من كلّ فج قـد قبلت ثنـــــاها

٢٩ - وأتوك في دار الضـــيافة بعـده
شربوا كئوس من الحب من يمنـاها

٣٠ - فتعطروا من طيب شرب رحيقهـــا
طـاب الشراب لكل من يهـــواها

٣١ - وقفوا وقـوف المكرمين كأنهـــم
أملاك رب العرش قـد أدنـــاها

٣٢ - عرفوا المقـــام ومن به فتـأدبوا
في روضة شرفت بمن ســـــماها

٣٣ - ثم الصـلاة على النبي محـــمد
مقبولة تهـــدى له يرضـــاها

٣٤ - والآل والأصـــحاب أرباب التقى
وكذا الســـلام هـدية يهـــداها

٣٥ - ما الجعفري يتلو المديح لأحمـــد
دار الحبيب أحـق أن تهـواها(٢)

توطئـــــة :

تمثل تلك القصيدة مراحل الزيارة وما فيها من انفعالات ومشاهدات وآمال بدءا من التشويق إلى الزيارة ... والانتهاء بالقبول ..

لذلك ترى كل مقطع من القصيدة قد بني على نظم يغاير غيره من

---

(٢) تنظر القصيدة في ديوان الجعفري ٧/٧١ - ٧٦ .

المقاطع ، حيث حشد له من التراكيب ما يلائم الغرض منه ... سواء فى الصياغة أو فى الصور ... ، لذا فقد قسمت الدراسة إلى مقاطع كل مقطع يجمعه غرض مستقل ليكون أدل على إدراك النظم وطرائق القول ...

● فالمقطع الأول ويجمعه غرض الحنين إلى المدينة والشوق إليها عن طريق إبراز فضائلها بأنها دار الحبيب .. ومهد التنزيل .. وممشى جبريل . ومسكن المصطفى - ﷺ - فهى أحق بالزيارة ..

● أما المقطع الثانى فيمثل جملة من المشاهد فى روضته - ﷺ - وحال الزائرين فيها بين باك وخاشع . وما نالوا من الكرامة ..

● أما المقطع الثالث فقد بنى على العلاقة بينه - ﷺ - وبين المدينة ، وإبراز صفاته - ﷺ - التى تدعو إلى البشرى بالزيارة ..

● أما المقطع الرابع فقد قام على التوسل بالنبى - ﷺ - من تغير الزمان وتحوله ، فإنه الملاذ عند اشتداد الكرب ..

● أما المقطع الخامس فقد اشتمل على سبب قبول الرجاء بأنه - ﷺ - أكرم مزور ، وقد نزلوا عليه ضيوفا .. وهو لا يرد أحدا خائبا ..

ويلاحظ - كما سيأتى - أن الأفعال عند الروضة قد أسندت فى المقطعين الأخيرين إلى الروح لا إلى الذات لأنها المنفعلة به والمتأثرة بلقائه ... بل الواجدة فيه ..

أما الخاتمة فقد تلاقت مع الفاتحة فى استرضائه - ﷺ - إذ إنها فى الزيارة ، وثمرتها - رضاه ﷺ - ..

المقطع الأول : التشويق ... ببيان فضل المدينة

دار الحبيب أحق أن تهواها
ونحن من شوق إلى ذكراها
دار بها خير الأنام محمد
يا سعد من نال المنى برؤاها
دار بها نزل الكتاب مفصلا
يتلى على خير البرية طه
دار بها جبريل يمشى راجلا
شرفت به الغبراء إذ واقاها
دار بها بيت النبى محمد
بدر الوجود بنوره جلاها

أول ما يلحظه الناظر إلى تلك الأبيات أنها بنيت على التكرار ، حيث تكرار « دار » فى خمسة أبيات متتالية .. بما يحدث أثرا موسيقيا تسر له الأذن عند سماعه ..

وهذا ناتج عن توظيف الشاعر للكلمات داخل القصيدة توظيفا فنيا يرمى إلى تكثيف لفظى صريح يوازيه تكثيف نفسى يزداد كلما تكررت ألفاظ معنى معين ويخضع ذلك لقاموس الشاعر المعين وإيثاره للكلمة دون غيرها .

ذلك أن تكرار الكلمة يرمى إلى تحقيق أغراض وأهداف لاتقف عند توكيد المعنى والاحتياط له ، بل تتعداه إلى انعكاس طبيعة علاقة الشاعر بالمكان المكرر ، فهو تكرار لا يجرى كيفما اتفق ، بل ينبض بإحساس الشاعر وعواطفه ...

ثم ترى فى تكرار المكان إشاعة للون عاطفى يقوى الصورة التى عليها بنية القصيدة ، حتى صار اللفظ المكرر جوهر النظم ولبه(٣)••

وبهذا تدرك قيمة التكرار عند الشيخ ففى ذلك تشويق وإلهاب للذكرى ، وتقوية الإحساس باللفظ المكرر ، فدار الحبيب هى أشجانه كل أشجانه وحنينه كل حنينه •• بحيث صارت تلك الدار هى الراحة عند الذكرى ••• والتسيم عند الشوق ••

ثم أمر آخر فإنك تجد فى تكرار « دار » منطلقا إلى تعداد صفات تتعلق بهذه الكلمة أو بيان مزاياها بما ينطوى عليه ذلك من إحساس مفعم بهذه الكلمة •

ذلك أن الشيخ قد عدد المتعلق فى الأبيات وغاير بينه ، فهى مرة دار الحبيب ، وأخرى دار يمشى جبريل فيها ••• وثالثة تتعلق بإنزال الكتاب ••• وعلى هذا يكون لكل واحدة منها سمة الاستقلال فى الحكم بخلاف ما لو جاءت فى موصوف واحد ••• فضلا عن أن التكرار لتعدد المتعلق غير عزيز فى الذكر الحكيم كما هو فى تكرار النعم فى « الرحمن » والنقم فى « القمر » ••

---

(٣) ينظر فى ذلك : المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها د/ عبد الله الطيب المجذوب ٢/٧٣ - ٩٠ ، والتكرير بين المثير والتأثير د/ عز الدين على السيد /١٧١ ، والتكرار فى الشعر العربى د/فاطمة محجوب ٢٩ - مجلة الشعر العدد الثامن ١٩٧٧ ، والبحث البلاغى عند العرب : تأصيل وتقييم د/ شفيع السيد ١٨٤ - دار الفكر العربى١٩٨٧ والبلاغة الفنية أ/ على الجندى ٢١٢ - مطبعة نهضة مصر •

ثم انظر إلى تلك الأخبار لتجدها خالية عن المؤكدات فهى فى مقام التسليم والشوق إلى الزيارة ، لأنها فى وصف ذلك للمحبين له — ﷺ — فلم يكن هناك من التردد أو الإنكار ما يدعو إلى تأكيد وتقرير ..

وقد وضع الظاهر موضع المضمر فى « دار بها » فى الأبيات الأربعة مع جواز ورودها بلفظ آخر أو بالضمير أو اسم الإشارة لتعليل الحكم والتنبيه على أن تلك الصفات التى اتصفت بها دار النبى من إنزال الكتاب ومشى جبريل — عليه السلام — الخ = حقيقة بالشوق ، ذلك أن الثابت عند أهل العلم أن قرن الحكم بوصف ينبه على علة الحكم كما فى قوله — تعالى — : « فلعنة الله على الكافرين »(٤) ، فالأصل « عليهم » وأتى بالوصف « الكافرين » « للدلالة على أن اللعنة لحقتهم لكفرهم ... »(٥) .

وكذلك الأمر فى البيت فإن المدينة أحق بالهوى والزيارة لأنها دار الحبيب .. و .. ومن الطبعى أن يزور الحبيب حبيبه وأن يحن إلى مهد إنزال الكتاب ..

ولذلك آثر صفة المحبة : « الحبيب » إذ إن الحب يكون فيما يوجبه ميل الطباع والحكمة ، جميعا ، فهى تقتضى الإرادة بلازميها من الميل إلى المحبوب والحكمة فى ذلك .. ولذلك فهى مقيدة بإرادة ما تراه

---

(٤) البقرة /٨٩ .

(٥) ينظر : الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ٩٨ ، ٩٩ ، والمفردات للراغب ١٠٥ .

(٦) البرهان فى علوم القرآن ٢/٤٩٣ .

ـ أو تظنه خيرا (٦) ... وهـذا هو اللائق بالحال معه ـ ﷺ ـ ..

وبهذا نفهم التعريف فى « الحبيب » فهى على أحد معنيين :

ـ إما للعهد الذهنى ... وفى ذلك إشارة إلى أنه مما يتبـادر إليه الذهن عند الإطلاق .. فإنه لا حبيب سواه ..

ـ وإما للجنس على إرادة الكمـال فى الوصف ، أى الكامل فى المحبة ، أو كأنه الحبيب ـ وحده ـ على الحقيقة وما سواه من المحبوبين لا اعتداد بهم ..

والإضافة فى : « دار الحبيب » لتشريف المضاف ، فإنها قـد اكتسبت الشرف بنسبته إليه ـ ﷺ ـ ..

ويمكن أن تكون الإضافة لشبه الاختصاص ، بحيث لا يذكر لهـا ساكن سواه ، فصارت تذكر به ـ ﷺ ـ ..

وقد اكتسب المضاف معانى أخرى كالحـرمة والتعظيم ، وعمـوم الفضل ـ بما يلائم المضاف إليه فى تلك المعانى .. ، ذلك أن « دار » أعم من مرادفه ، ذلك أن الدار المنـزل اعتبارا بدورانها الذى لهـا بالحائط .. ثم تسمى البادة دارا والصقع دارا (٧) ... ولهذا أسـند إليها نزول الكتاب فيها ، ومشى جبريل ـ عليه السلام ـ وسكن النبى ـ ﷺ ـ لها ... كل باعتبار معنى من معانيها ..

---

(٧) المفـردات /١٧٤ .

وبهذا تدرك مدى حسن الابتداء بقوله : « دار الحبيب » بحيث أوحى النظم بكل الأحاسيس الفياضة ، والطاقات الجياشة ، بما يتغلغل فى جميع أجزاء القصيدة ويسهم فى صياغتها وبنائها اللغوى ..

ذلك أن تلك : « دار الحبيب » مقدمة طبعية لزيارتها ، والشوق إليها ، والكرامة فيها ، والرضى بها ... الخ ..

والتفضيل فى قوله : « أحق أن تهواها » مسلوب المفاضلة ، أى حقيقة بالهوى وذلك للإشارة إلى عدم المقابلة بينها وبين غيرها من الديار المحبوبة ..

ويحتمل أن يكون على بابه من التفضيل وحذف المفضل عليه لإرادة العموم ، ليشمل كل ما يهواه الإنسان من مال وولد وأهل ... الخ ..

والأول ـ عندى ـ أولى : إذ إن مجرد المقارنة بين المدينة وبين غيرها من الديار .. يقلل من درجة المحبة ..

وانظر إلى أسلوب الخطاب فى : « تهواها » و « نحن » وما سيأتى بعد ذلك من شيوع ضمير الخطاب فى قوله : « وقفت » ، و « شاهدت » ، و « نظرت » ، و « رويت » و « دهشت » ، و « رأيت » ... الخ .

« ولغة الخطاب مما يعنيه فى الكلام الحضور والمكاشفة والاسماع ... وكذلك يعنى الخطاب التقريب والإفادة والتودد والتحبب »(٨) ..

---

(٨) ينظر : تذوق وتحليل بلاغى لقصيدة أمية بن أبى الصلت فى العتاب : « غدوتك مولودا » د/ دخيل الله محمد الصحفى/٧٥٨ مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة ـ العدد السادس عشر ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م

وهذه المعانى تظهر فى السياق بقوة ، فالمخاطب محب لرسول الله - ﷺ - مشتاق إلى زيارته ، فهو أولى بالتحبب والتودد ... هذا بالنسبة للمخاطب ..

أما بالنسبة إلى الشيخ - رضى الله عنه - فيكاشف بمذهبه فى حبه ويقرع به السمع عاليا مجابها ، دلالة على تمكنه من نفسه فهو يصدع به ..

ويمكن أن يكون الخطاب - هنا - من باب التجريد بأن يجرد المتكلم نفسه من ذاته ، فيجعلها - شخصا آخر ثم يخاطبه ، للمبالغة فى النصح أو غير ذلك ..

ووجه المبالغة فى التجريد كأنه يجعل نفسه لكمال الإدراك كأن فيها نفسا أخرى(٩) ..

وعطف : « وتحن من شوق إلى ذكراها » على : « أن تهواها » فيكون هناك ترق فى الكلام ليقابل به الترقى فى المشاعر والأحاسيس.

ذلك أن العطف يدل على تحرك النزوع عند المحب بعد الوجدان ، فلم يكتف بالهوى وإنما زاد حتى صار حنينا ، إذ الحنين قد يكون مع صوت ، وهو يستعمل فى الإشفاق الجم الكثير ولذا تراه مستعملا فى حنين المرأة والناقة لولدها(١٠) ..

---

(٩) عروس الأفراح لابن السبكى ٣٥٧/٤ « شروح » دار السرور بيروت .

(١٠) ينظر : المفردات /١٣٣ « حن » .

وبهذا تدرك تنامى المعانى فى عطف « وتحن » للدلالة على تراكب الانفعالات وزيادتها ، فإذا اتحد المحدث عنه والخبر فى جملتى العطف وكان حالُ السامع يعنيه أن يعرف حال الثانى ازداد الوصل حسنا ٠٠ يقول الإمام : « وجملة الأمر أنها لا تجىء حتى يكون المعنى فى هـذه الجملة لفقا لمعنى الأخرى ومضافا له ، مثل أن زيدا وعمـرا ، إذا كانا أخوين أو نظيرين أو مشـتبكى الأحوال على الجملة كانت الحال التى يكون عليهـا أحدهما من قيام أو قعود أو ما شاكل ذلك مضـمومة فى النفس إلى الحالِ التى عليها الآخـر من غير شك ٠٠٠ واعلم أنه إذا كان المخبر عنه فى الجملتين واحدا ازداد معنى الجمع فى الواو قوة وظهورا ، وكان الأمر حينئذ صريحا ٠٠٠ »(١١) ٠٠

لذلك فعد الواو للعطف أولى من جعلها للاستئناف ورفـع الفعل بعـدها ـ كمـا هو فى الديوان(١٢) ـ لأن ذلك بعيـد عن الغرض والنظم ٠٠

والتقييد بـ : « من شوق » لإرادة البيان ولدفع توهم غير المراد ، فليس الحنين إليها لغرض آخر يتعلق بمالٍ أو ولد ٠٠ أو غير ذلك من عرض الدنيا ٠٠ وإنما التقييد بمحض الزيارة لغرض واحد وهو الشوق ويقصرها عليـه ٠٠

وفى قوله : « إلى ذكراها » فائدة أعلى من « إليها » ، ذلـكَ أن

---

(١١) دلائل الاعجـاز ٢٢٥ ، ٢٢٦ ـ قرأه وعلق عليـه / محمود محمد شاكر مطبعة المدنى ط ثالثة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م ٠

(١٢) ينظر الديوان ٧/٧١ ٠

فيها إيماء إلى أولَ درجات النزوع واشارة إلى طريق المحبة والزيارة وهو كثرة ذكر المدينة وساكنها ــ عليه الصلاة والسلام ــ ثم يأتى عقب ذلك الحنين والشوق .. فالوصولُ إليها ..

ذلك أن القصد إلى ذكرى ساكنيها ولكنه عبر بالمحلّ وأراد الحال فيه ، حتى يعم كلّ من فيها من الأطهار الأخيار فضلا عن الإشارة إلى زيادة الحب والذكر حتى تعدى الحالُ إلى المحلّ فذكره ..

ثم ترى اطراد النظم على تقديم المتعلق فى أربعة مواضع فى قوله :

ــ دار بهـا خير الأنام محـمد

ــ دار بهـــا بيت النبى

ــ دار بهـا نزل الكتاب مفصلا

ــ دار بهـا جبـريل

والغرض هو اختصاص المدينة بهذا الفضل ، وذلك الشرف الرفيع ، قصر موصوف على صفة قصرا حقيقيا تحقيقا أو ادعائيا ..

ذلك أن قوله « بها خير الأنام » ، و « بها بيت النبى » قصر حقيقى تحقيقى ، أما قوله : « بها نزل الكتاب » و « بها جبريلُ يمشى » فالقصر حقيقى ادعائىّ إذ الكتاب نزلَ فى مكة ــ أيضا ــ ولكنه نزلَ الأكثر منزلة الجميع .. وكذلك كان جبريلُ يأتى النبى ــ ﷺ ــ راجلا على هيئة : « دحية الكلبى » فى مكة أيضا ..

والتفضيل فى خير الأنام على بابه من المفاضلة ، وإيثار الأنام يؤيد ذلك ، فإنه يقتضى تعظيم شأن المسمى من النـــاس ، فضـــلا عن استلزامه للجميع ، فلا تقول : جاءنى الأنام ، تريد بعض الأنام(١٣) .. وبهـــذا فارق الناس ..

وهـــذا يفيد المبالغة من وجهين :

ـــ أنه ـــ ﷺ ـــ أفضل العظماء من الناس ، فكيف بغيرهم ؟

ـــ أنه ـــ ﷺ ـــ أعظمهم قاطبة ، فإنه لا يجوز وضع الجمع هنا موضع المفرد ، كما هو الحال فى « الناس » فقد يأتى كذلك ، كما فى قوله ـــ سبحانه ـــ : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم »(١٤) ، فالمراد بـــ : « الناس » الأول نعيم بن مسعود ، ولكنه عبر عنه بالجمع : « الناس » لأن قوله قد قامت عليه القرائن فكان بمنزلة المتواتر الذى تمالأ عليـــه الناس(١٥) ..

والإبدال بقوله : « محـــمد » بعد قوله : « خير الأنام » مع صرف الذهن إليـــه النص على تعينه بعـــد تقدم وصفه ...

وجاء النداء فى قوله : « يا سعد من نال المنى برؤاها » على طريقة العرب فى نداء غير العاقل كما هو شائع فى نداء الحسرة والأسف وغير ذلك فى الذكر الحكيم ..

---

(١٣) ينظر : الفروق اللغوية /٢٢٨ .

(١٤) آل عمران ١٧٣ .

(١٥) ينظر : نظم الدرر ١٨٤/٢ للبقاعى ـــ تح عبد الرازق غالب المهدى ـــ دار الكتب العلمية بيروت ـــ ط أولى ١٤١٥هـ ـــ ١٩٩٥م .

وأكثر مواقع نداء غير العاقل تجرى « فى السياقات المليئة ذات الحس الطاغى والموقف المفعم وترى الأداة فى كثير منها كأنهـا صرخة يطلقها الشاعر والبليغ المبين ..

وتوزع هـذه الكلمات ذات الطابع النفسى الحاد فى أدب الأديب وشعر الشاعر له دلالة على طبيعـة حسـه بمعانيه ومدى انفعـاله بهـا ... »(١٦) .

وبهذا تدرك مدى انفعال الشيخ فى هـذا النداء ، حيث يرى أن هـذا الوقت هو حين السعد والفرح فيناديه بأن يحضر ، إذ إن المعنى ـ لا محالة ـ : يا سعد أقبل فهذا أوان حضورك ..

وفى ذلك من الإشارة إلى علو تلك الحالة فى السعد بخلاف غيرها ، ويقصد ذلك إيثار : « يا » التى للبعيد حقيقة أو حكما ، فهى حـالة عزيزة على النفس ..

وعرف بالموصولية فى قوله : « من نال المنى برؤاها » ولم يقل يا سعد الرائى لها ـ مثلا ـ حتى يجرى عليـه ذلك الوصف : « نال المنى » وإبرازا بأنها أمينة عزيزة غالية قد ظفر بها ..

وفى البيت الثالث :

دار بها نزل الكتاب مفصلا يتلى على خير البرية ظـه

عبر بـ : « الكتاب » مع أن الذى نزل فى المدينة بعض الكتاب ، إما لأن الكتاب يطلق ـ كالقرآن ـ على المجموع المنزل على النبى ـ

---

(١٦) دلالات التراكيب ٢٦٢ ـ د/ محمد أبو موسى .

— ﷺ — وعلى القدر الشائع بين الكل والجزء(١٧)•• وإما عن طريق إطلاق الأكثر على الجميع ••

وغاير فى النظم بين « نزل » و « يتلى » وكان مقتضى الظاهر : « تلى » على الماضى لتقدم وقوعه وذلك لتصوير الحالة السابقة للسامع كأنه يسمع الكتاب يتلى فى جنبات المدينة على خير البرية ••• فهذه الحال تهم المخاطب أن يتدبرها ويقف معها ••

ذلك أن لكل آية مدنية ارتباطا بمكان ما من المدينة ، والزائر لها يستنطق تلك البقاع آياتها حتى كأنه يسمعها ••• فضلا عما يشعر به المضارع من تكرر وتجدد التلاوة آنا آنا •••

وهذا التحويل فى النظم من الماضى إلى المضارع شائع مستفيض فى الذكر الحكيم ، كما فى قوله — سبحانه — : « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا »(١٨) ، يقول الزمخشرى : « فإن قلت : لم جاء « فتثير » على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟

قلت : ليحكى الحال التى تقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم أو غير ذلك كما قال تأبط شرا(١٩) :

---

(١٧) ينظر : روح المعانى ١/١٧٦ — الألوسى — دار الفكر العربى

(١٨) فاطر /٩ •

(١٩) ينظر : شرح شواهد الكشاف

بأنى قـــد لقيت الغـــول تهوى
بسـهب كالصـحيفة صعصـعان

فأضربها بـلا دهش فخـــرت
صريعـــا لليـــدين وللجـران

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التى تشجع فيهـا بزعمه على ضرب الغول كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجيب من جرأته على كل هول وثباته عند كل شدة ٠٠ »(٢٠) ٠

وإيثار « طه » دون أسمائه — ﷺ — فى قول الشيخ : « يتلى على خير البرية طه » لأنه جاء فى سـياق نزول القرآن وتلاوته وفيـه جرى على سنن النظم القرآنى فى إيثار « طه » فى ذلك السياق فى قوله سبحانه : « طه ٠ ما أنزلنا عليك القرآن لتشـقى »(٢١) ، على القول بأن « طه » من أسماء الرسول — ﷺ — (٢٢) ٠٠

وآثر العلمية فى قوله :

دار بها جبريل يمشى راجلا شرفت به الغبراء إذ وافاها

لمـا فى العلم « جبريل » من مزيد عناية واختصاص ، وما يثيره فى النفس من هيبة وعظمة ، وجلال وقوة ٠٠٠ فإذا استشرفت النفس تلك الصفات من العلم : « جبريل » — عليه السلام — ثم جـاء قوله يمشى راجلا = ألقى النظم فى الثياب جلالا وهيبة فوق جلال المدينـة وهيبتهـا ٠٠

---

(٢٠) الكشاف ٣/٢٦٩ ، ٢٧٠ ، وينظر : نظم الدرر ٦/٢٠٧ ٠
(٢١) طه /١ ، ٢ ٠
(٢٢) ينظر : البحر المحيط ٧/٣٠٩ ٠

وإيثار المضارع : « يمشى » مع مضى زمنه ، وانطواء وقته لإرادة تكثير الحدث وتكرر حدوثه مرات كثيرة ... فضلا عما فيه من التشخيص والتصوير أمام المتلقى حتى كأنه يراه ويشاهده ..

وانظر إلى التقييد بالحال : « راجلا » وما فيه من بيان الهيئة ، والحال التى كان عليها جبريل — عليه السلام — ثم ما فيه من شرف المدينة فى ترجل جبريل — عليه السلام — فيها ..

وفصل بين قوله : دار بها جبريل يمشى راجلا وبين الشطر الثانى : شرفت به الغبراء للاستئناف البيانى ، إذ تثير الجملة الأولى سؤالا عن كيفية استقباله فيها وأثره عليها .. فكان قوله : « شرفت به الغبراء » جوابا عن ذلك ..

ولعل فى ذلك دلالة على مدى التفاعل بينه وبين أجزاء المدينة : ترابها وما عليها ، ليفيد زيادة تكريم لها ..

وفى التقييد بالظرف : « إذ وافاها » دلالة على سرعة التأثر به ، ففى الوقت نفسه كان الشرف والكرامة ..

وفى مجىء « فعل » وهو يأتى فى الأفعال اللازمة دلالة على ثبوت الشرف ودوامه لها وفصل بين هذا البيت وبين سابقه ولاحقه فى قوله :

دار بها بيت النبى محمد بدر الوجود بنوره جلاها

لأنه فى تعداد مآثر وصفات المدينة ... والتعديد من مقتضيات الفصل ، وفيه دلالة على استقلال كل صفة منها بالشرف بحيث تكون سببا للزيارة .. فما بالك إذا اجتمعت تلك الصفات جميعها ؟

وتأمل تخصيص « بيت النبى محمد » — ﷺ — بسكنى المدينة فى قوله : « دار بها بيت النبى محمد » •• مع تعدد البيوت والدور بها ؟ ذلك لأنه أشرفها وأفضلها ، بل إن فضل المدينة وشرفها قد سرى إليها من وجوده فيها ••

كما أن بيت النبى — ﷺ — قد شهد كثرة خطاه وممشاه — ﷺ — ومن ثم كان روضة من رياض الجنة ، وهى روضة حقيقية — كما قال العلماء(٢٣) — لو كشف عنا الحجاب لرأيناها ، ولو أقسم رجل صلى فى الروضة أنه صلى فى الجنة ما حنث فى يمينه ••

وفى إتباع « محمد » بعد « النبى » — ﷺ — مع إمكان الاستغناء عنه لدلالته عليه بـ : « النبى » زيادة فائدة ، إذ فى الذات كل الصفات التى اختص بها النبى — ﷺ — والتى تشوق إلى الزيارة •• والنبوة بعض منها ••

وفى تلك الصورة البديعة للنبى — ﷺ — استكمل الشيخ — رضى الله عنه — المحور الأول فى التشويق والحنين إلى المدينة بقوله : « بدر الوجود بنوره جلاها » •

وفى التشبيه بالبدر دلالة على شدة الضياء ، واستكمال الحسن ، وبلوغ الكمال فى الوصف ذلك أن البدر إنما يكون عند اكتمال القمر ، فهو أضوء وأجمل ، وأبهى ، وأحسن ، فى النفس ، وأسر للعين ••وكذلك رؤيته — ﷺ — يرى فيها الزائر من الضياء والفرح ما تقر به عينه••

وفى إضافة « بدر » إلى الوجود تخليص للتشبيه من الابتذال

---

(٢٣) ينظر فى ذلك : فتح وفيض وفضل من الله للامام الجعفرى ٢٠٨

والقرب ، ذلك أن القمر المعروف خاص بالأرض ، فنطاقه ضيق لا يتعدى هـذا الكوكب •• بخلاف نوره — ﷺ — الذى عم الآفاق ، واخترق الطبـاق ••

وفى قوله : « بنوره جلاها » إشارة إلى وجه الشبه المراد وهو تجاية الظلمة وكشفها حتى يعم النور ••

وقد توزعت الجمل فى تلك المقطوعة وتنوعت بين الجمل الاسمية التى تفيد الثبوت والدوام وذلك فى تعداد صفات المدينة وفضلها ، لإبراز ثبوت ذلك الفضل واتصاله ودوامه ، وبين الجمل الفعلية التى فعلهـا مضارع كما فى:«يتلى على خير البرية» «ويمشى راجلا» وذلك لتصوير الحدث •• وبين الجمل التى فعلها ماض كما فى : «نال المنى» ، «نزل الكتاب » ، « بنوره جلاها » للدلالة على استحقاق ذلك ووقوعة ، فهو يخبر عنـه ••

المقطع الثانى : مشاهد وأحوال فى الروضة الشريفة

والمسـك فاح بروضـة نبوية
يا سـعد من وافى بديع سـناها
فإذا وقفت لـدى الضريح مسـلما
شاهدت شمسا فى العلا وضـحاها
ونظرت بالقلب السـليم محببـا
ورويت من كأس يفـوح شـذاها
ودهشت من ذاك الجلال وهيبـة
ونظرت عشـاقا سمعت بـكاها

ورأيت بالدمع السخى بأعين
قرت لدى الفيحاء من رؤياها
قالوا السلام عليك يا خير الورى
سمع التحية منهم رداها
يا سعد من أهدى السلام لأحمد
عند المقام بحالة يرضاها
نال الشفاعة والكرامة مذ غدا
ضيف الذى وسع البرية جاها

لعل الغرض من تلك الأخبار بين ، وهو تصوير الروضة وما عليه العشاق فيها ، وما يلقون من كرامة ورضا تمهيدا للأبيات التالية من إبراز فضله — ﷺ — ..

ولذلك ترى الصورة — بالمعنى الأشمل — فاشية فى النظم ، بل عموده الذى يقوم عليه ، للكشف عن انفعالات النفس ونزوعها بالأقوال والأفعال التى تومىء إلى عميق حب — فالمسك يضوع ويفوح وينتشر فى أنحاء الروضة الشريفة ، ليشيع فى الجو من عبقه — ﷺ — حتى تستشرف الروح إلى المزيد من القرب ..

— وقوف الزائر عند الضريح وما فيه جلال وهيبة تأسر المحب عند الزيارة ، وقد أعان لدى المفيد للقرب الشديد على إبراز الهيبة والوقار والجلال ..

أحوال المحبين عند الروضة ورؤيته له — ﷺ — شمسا ساطعة منيرة فالقلب ينظر إليه — ﷺ — ..

هذه الصورة الشاخصة قد أعان على كشفها اختيار الألفاظ وانتقائها — كما سترى مفصلا — ، فالمشاهدة تدل على تحقق الرؤية

وقوتها ، لأنها تكون فى اليقين ، والشمس رمز للعموم ، والحاجة إليها وانتشار ضوئها ..

والنظر بالقلب السليم لأنه الدال على صدق المحبة ... والكأس « يفوح شذاها » ليشيع فى الجو عطر عابق .

والبكاء عنده محس مسموع للدلالة على كثرة البـاكين وغزارة دمعهم ، فضلا عن التمدح به ، فهو دمع عز وشرف ، فهو دمع تقر معـه العين لأنه دمع عاشق محب ...

تلك الصورة الكلية للروضة وحال المحبين فيها قد جاءت فى نظم بديع ، وبناء بليغ ..

فانظر كيف بنى الاسـم على الفعل فى قوله : « والمسك فاح » لمزيد عناية واهتمام ووجه العناية والاهتمام ما يمثله المسك ـ سواء كان حسيا أو معنويا ـ من هيام النفس وجذبها إلى محبوبها ..

ثم فيه حسن ابتداء فى وصف الروضة لأنه مما يتفاءل به ، وتتوق النفس إليه فكان تقديمه أقوى لذلك ..

وهـذا لا تجده عند تأخير المسك حيث يتوارى المقدم فى الذكر تبعا لتواريه فى النفس وهـذا ما نبه إليه الإمام فى قول بعض الأعراب:

الليل داج كنفـا جلبـابه والبين محجود على غرابه

حيث يرى الإمام أن سبب ما ترى من الملاحة راجع إلى أن وضع الكلام الذى ترى ، فجعل « الليل » مبتدأ وجعل داج خبرا له وفعـلا لمـا بعده .. ولو قال : « قد دجا كنفا الليل » لم يكن شيئا(٢٤)..

---

(٢٤) الدلائل ١٠٢ ، ١٠٣ .

ذلك أنه ليس الغرض وصف ظلمة الليل ، وإنما القصد الرئيس فى وصف حركة وجدان الشاعر وكيفية إحساسه بمعناه إحساسا طاغيا فرمى به فى صدر كلامه وبنى عبارته عليه ، ثم أخبر عنه بهذه الكلمات(٢٥) .

وكذلك التقديم هنا ، فالمسك هو الذى حرك وجدان الشيخ ـ رضى الله عنه ـ فأحس به ، فجعله صدر كلامه ، وأساس عبارته ، ولو زحزحت المسك عن مكانه وقلت : « وفاح المسك » لما كنت واصفا لوجدان الشيخ وإحساسه ..

وعطف تلك الجملة : « والمسك فاح » على قوله : « بنوره جلاها » فى البيت السابق ، إذ بينهما توسط بين الكمالين مع عدم المانع ، فالجملة الأولى خبرية لفظا ومعنى ، والثانية كذلك .. وقد أفاد الوصل تناميا فى المعانى ، حيث دل على أثر النبى ـ ﷺ ـ فى تضوع المسك وانتشاره ، كما كان ـ ﷺ ـ هو النور الذى جلى الظلام فى الجملة الأولى ..

وتنكير : « روضة نبوية » لإرادة التعظيم والتشريف ، ولذلك وصفها بقوله : « نبوية » ليبين مناط الشرف والعظمة وجهتهما وأن ذلك من نسبتهما إليه ـ ﷺ ـ ..

وترى الشيخ ـ رضى الله عنه ـ قد اطرد نداؤه فى غير العاقل على نداء السعد فى المواضع الثلاثة : « يا سعد من نال المنى » ، و

---

(٢٥) ينظر : دلالات التراكيب ٢٢ .

« يا سعد من وافى بديع سناها » ، و « يا سعد من أهدى السلام لأحمد » ذلك أن السعد مما يتفاءل به ، فهو معاونة الأمور الإلهية للإنسان على نيل الخير(٢٦) .. ، لذلك كان مهما بالنسبة الى الزائر له — ﷺ — أن ينال المعاونة على الخـير ، فكان تكرار مناداة السعد ملاءمة للمقام والسياق ، ذلك أن أوليات التكرار تقتضى أن يكون اللفظ المكرر وثيق الارتباط بالمعنى العام .

ونداء السعد فى تلك المواضع يجرى على ما تقدم من إفادة انتهاء الغاية فى السعد ، وأنه لا غاية وراءها ، ولا مطمح بعدها ، فإن هـذا أوان حضوره ، فإنه فى روضة النبى — ﷺ — والمسك يفوح ويضوع .. وهو يرى ذلك المشهد الأثير من حال الأحباب ... وقد نالوا الشفاعة والرضى .. وهـذه غاية عظيمة ، وحالة من السعد بعيدة ...

وتأمل العطف بالفاء وإيثار « إذا » فى قوله :

فإذا وقفت لدى الضريح مسلما شاهدت شمسا فى العلا وضحاها

وما تدل عليه الفاء من المفاجأة ، وكثرة الانفعالات ، وتراكبها ، وارتقائها ، فإنها أمام من أملت زيارته وتمنت رؤيته .. وها هى وقـد تحققت لها الأمانى والأمالى ، وهى واقفة أمام الضريح .. فهى حالة من الشعور غامرة بانفعالات تقوم بها الفاء دون غيرها من دون حروف العطف ..

وانظر إلى دلالة : « إذا » على تحقق الوقـوع ، وقـوة النفس

---

(٢٦) ينظر المفردات /٢٣٢ .

وامتلائها بالزيارة ، فهذا مقام : « إذا » دون : « إن » أو « لو » لأنها مشاهد واقعة ••• فهى على أصل وضعها(٢٧) ••

وقد انبجست من تلك الجملة جمل كثيرة ، وتولد عنها جمل قصيرة داخلة فى حيز جوابها ، وهـذا من توالد المعانى والتراكيب فى النظم العالى •• وهو نوع من الوصل عجيب غريب ••

فقد دخل فى حيز الجواب كل ما يأتى بعده من معطوفات ، تجسد الصورة وتكبرها ، حتى يصير المشهد الواحد مشاهد كثيرة ، وحتى ترى الصورة تتفتح ويتولد عنها صور جزيلة كثيرة ، منها ما يتعلق بحـال المتكلم من المشاهدة والنظر والشم •• الخ ومنها ما يتعلق بحال بقية الزائرين من البكاء والسلام •• الخ •

وقد آثر « لدى » دون « عند » فى قوله : « لدى الضريح » لمـا فى « لدى » من الدلالة على شدة القرب لأنها تكون « لمـا يليك »(٢٨) ، ففى ذلك إزكاء للعواطف ، ثم هناك أمر آخر وهو أن « لدن » تكون كما قال أبو الحسن الحرالى(٢٩) لما بطن ، ففى ذلك إشارة إلى إشراق الأنوار الإلهية عند الروضة على من تحلى وتخلى وتزين ••• وذلك من الأمور التى تتعلق بالباطن دون المشاهد ••

وتعريف : « الضريح » للعهد الذهنى ، أى : ضريح رسول الله ﷺ — لأنه الذى ينصرف إليـه الذهن عنـد الإطلاق فى مثل هـذا المقـام ••

---

(٢٧) ينظر : الايضاح /٣٥ « دار الجيل » بيروت •

(٢٨) ينظر : الفروق اللغوية ٢٤٦ •

(٢٩) ينظر : نظم الدرر ٤/٤٩٠ •

ويمكن أن يكون للعهد الذكرى ، على تأويل قوله : « دار بها خير الأنام محمد » بأنه أراد بذلك ضريحه ولكنه عدل عنه إلى العلم « محمد » لما ثبت من حياته — ﷺ — فى ضريحه ، فهو الذى بالمكان على الحقيقة ... وهذا أقوى فى سياقه ..

وانظر إلى التقييد بالحال : « مسلما » وملاءمته لحال الزائرين ، فأول ما يبدأون به هو السلام عليه — ﷺ — فالحال يصور الحال التى عليها الزائرون وأنهم بين السلام والدعاء والبكاء ..

وتعريف « السلام » فى بيان سلامهم لإرادة الكمال فى الوصف ، فهو السلام الكامل عليه — ﷺ — ..

ثم تأمل جواب الشرط : « شاهدت شمسا فى الضحى وضحاها » وانظر إلى تنكير « شمسا » وما يدل عليه من النوعية ، للإشارة إلى أنه نوع غير متعارف ، فإنها غير الشمس المعروفة ، بل هى شمس هداية ونور ..

ويمكن أن يكون التنكير للتعظيم والتفخيم ، لإثبات فضله — ﷺ — فى إزالة الظلمة وكشفها ، ويرشح لذلك قوله فى البيت : « فى العلا وضحاها » فذلك القيد لإرادة قوة ضوئها ..

ومجىء الشرط ماضيا فى شاهدت ، ونظرت ، ورويت ، ودهشت ... الخ لتحقق وقوع الجواب عند تلبسه بالشرط ، فإن الروضة لا تخلو من تلك المشاهد بحال ..

وضمير الخطاب فى : « وقفت وشاهدت » وما بعد ذلك لا يقصد به مخاطب معين ، بل كل من تحقق منه المشاهدة والنظر والوقوف ،

مادام سليم القلب ، صحيح النظر فإنه يشاهد وينظر ويروى ، لسلامة آلته وصحته ..

وإيثار المشاهدة فى قوله : « شاهدت شمسا » لما تقتضيه من العلم بالمشاهد ، فضلا عن قوة الرواية وتحققها من غير لبس أو تخليط أو وهم لأنها تكون فى اليقين(٣٠) ..

وتأمل الاستعارة فى قوله : « شاهدت شمسا » وبلاغتها ، فالشمس علم على إزالة الظلمة حال طلوعها من غير ما لبس ولا إخفاء.. فهى استعارة أصلية تصريحية .

ثم رشح الاستعارة بقوله : « فى العلا وضحاها » لما تكون عليه الشمس فى وقت الضحى من كامل نورها وتمام ضوئها ..

ثم انظر الى القيد فى قوله :

ونظرت بالقلب السليم محببا ورويت من كأس يفوح شذاها

حيث قيد النظر بـ « بالقلب » ووصفه بـ : « السليم » لإرادة اليقين فى الرؤية ، وأن القلب فيها قد واطأ البصر ، دلالة على تمكن الرؤية ، يقول البقاعى فى قوله سبحانه : « ما كذب الفؤاد ما رأى »(٣١) : « أى : حين رؤية البصر كان القلب ، لا أنها رؤية بصر فقط ـ تمكن فيها ـ للخلو عن حضور القلب ـ النسبة إلى الغلط .. »(٣٢) ..

---

(٣٠) ينظر : الفروق اللغوية /٧٦ ، ٧٧ والمفردات /٢٦٨ .

(٣١) النجم /١١ .

(٣٢) نظم الدرر ٣١٨/٧ .

ولذلك وصف القلب بـ : « السليم » للاحتراز عن القلب المريض فإنه لن يرى ذلك لمانع عنده .. ولذلك أطلق فى « السليم » ليشمل المبرأ من كل أمراض القلوب ..

وأطلق فى « محببا » عن القيد ليفيد العموم فهو محبب إلى المؤمنين كلهم ، أو محبب فى جميع صفاته الخلقية والخلقية وهذا أدل على المدح ..

ويمكن أن يكون منزلا منزلة اللازم ، فهو شأنه كذلك أبدا وإن لم يوجد من يتعدى إليه الحب ..

والبناء للمفعول لإرادة المبالغة فى ذلك ، لأن محبا قد حببه إلى الناس وليس ذاك إلا المولى — سبحانه وتعالى — ، وفى ذلك الوصف أيضا — بيان لعلة الزيارة والشوق إليها ، كما هو فى : « دار الحبيب » .

وعطف تلك الأفعال : « ونظرت » ، « ورويت » ، « ودهشت » بالواو لأنها داخلة تحت الشرط ، فالغرض إلى وقوعها مجتمعة ..

وتنكير كأس « للنوعية .. فإنها غير المعهود بين الناس ، ووصفت بـ : « يفوح شذاها » ، لتزيين الموصوف وتجميله حتى يخلصه من شوائبه ، وجاء الفعل مضارعا للدلالة على تجدد الرائحة واستمرار انبعاثها ..

ويلاحظ أن الذوات قد جاءت فى تلك القطعة كلها منكرة : «شمسا»، « كأس » ، « عشاقا » ، « أعين » لأن تلك المرائى تخالف المعهود من دنيا الناس ..

ولعل فى إيثار : « رويت » على شربت لما فى الرواء من

الدلالة على الكثرة(٣٣) وبلوغ الغرض ، ثم الرضا بذلك ، لأنه قد يشرب ولا يروى •

وانظر إلى المخالفة فى النظم ، حيث بنى الفعل للمجهول فى قوله :

ودهشت من ذاك الجلال وهيبة ونظرت عشاقا سمعت بكاها

فتغيير النظم فى : « ودهشت » لإرادة قوة الحدث ، وسلطانه على النفس ، وما تملكه من مشاعر جارفة •• فدهش من حيث لا يدرى • فضلا عما فى البناء للمجهول من التركيز على الحدث نفسه من دون النظر إلى فاعله ••

ولذلك تلائم البعد فى اسم الإشارة : « ذاك الجلال » مع البناء للمفعول ، إذ فى البعد معنى — التعظيم والتفخيم من شأن الحدث ، على إرادة تنزيل التوسط منزلة البعد ••

وفى تنكير : « عشاقا » معنى التكثير ، وهذا يتلاقى مع تلك الحالة البديعة ، فهم فى حالهم هذه من انهمار الدمع عنده — ﷺ — كثر ، وهى حالة فى الارتقاء الإيمانى عالية ••

وما أبلغ قوله : « سمعت بكاها » حيث إن الدمع يرى ولا يسمع إلا إذا كان عاليا ، فقوله : « سمعت » يدل على علو صوتهم بالبكاء ، واشتداد نحيبهم وغلبته عليهم ، فلم يستطيعوا له دفعا ، حتى كان له صوت عال يسمع ••

---

(٣٣) ينظر : المفردات ٢١٠ •

والبكاء لا يسمع ــ أيضا ــ وإنما يسمع صوته ، فتقدير الكلام : سمعت صوت بكاها ، على حذف المضاف للعلم به من السياق •• وحذف المضاف من سنن العرب فى نظمها ••

ويمكن أن يكون الكلام على سننه وطبعه من دون حذف ، ويكون لكثرة تساقط الدمع وغزارته له صوت يسمع •

وهــذا أدل على انفعالهم الشديد ، وتأثرهم البالغ ، وهو ما يتلاقى مع وصف الدمع بالسخى فى البيت الآتى بعده فى قوله :

ورأيت بالدمع السخى بأعين قرت لدى الفيحاء من رؤياها

فوصف الدمع بالسخاء مع أنه وصف صاحبه من المجــاز العقلى للمبالغة فى كثرته عن طواعية ورضا ومحبة •

ثم قدم : « بالدمع السخى » وغير النظم وحوله عن سننه ، لأن الرؤية تقع على العين فيها الدمع ••• فكأن الأصل : ورأيت أعينا فيها الدمع السخى » ولكن أوثر ما عليه النظم للدلالة على أن الدمع قد ملأ العين حتى غطاها ••• فالناظر لا يجد لها رؤية ، بل يرى دمعا قد حجب العين لكثرته ••

وهــذا المعنى لا تكاد تجده فى تقديم الأعين ، لأنه يشــعر بأن الرؤية واقعة عليها وأنها التى لفتت الناظرين ، ولكن المهم هو الدمع الهطل عن محبة وشوق •

وجاء بجمع « فعل » على « أفعل » والقياس « فعول » لأنه أراد العين الباصرة ، والجارحة وهــذا ما اطرد عليه نظم القرآن فى جميع « عين » على « أعين » فى الجارحة ، وعلى « عيون » فى عين الماء ••

ثم فصل الجملة الثانية عن الأولى إما لشبه كمال الاتصال ، إذ الجملة الأولى تثير فى النفس سؤالا عن حال النفس مع الدمع ، وكيف كانت ؟ فكانت الجملة الثانية جوابا لها ، بأنه دمع فرح تقر معه النفس ويستريح به القلب ..

ويمكن أن يكون الفصل لكمال الاتصال ، لأن الجملة الثانية يمكن أن تكون صفة للأولى مبينة لحال الدمع ، وكاشفة عن مضمون قوله : « السخى » لأنه يقتضى - كما تقدم - الطواعية والفرح ...

وإيثار « قرت » على السرور أو الفرح ، لما فيه من معنى السرور وزيادة الثبوت على ذلك ، فأصله : قر فى المكان يقر قرارا إذا ثبت ثبوتا جامدا .. ، فضلا عما فيه من معنى البرد(٣٤) ..

وفى هذا من الدلالة على الرضى بتلك الكرامة وعدم المطمح فى غيرها ، لعظيم سرورهم فيها سرورا لا يعتريه حزن .. فهو كناية عن السرور ..

ومما يلحظه الناظر فى التركيب أن : « قر » قد أسند إلى العين خصيصا دون غيرها من بقية الجوارح فى الإنسان على اطراد النظم الحكيم فى ذلك فى قوله - سبحانه - : « فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن »(٣٥) ، وقوله : « ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن »(٣٦) ، وقوله : « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا

---

(٣٤) ينظر : المفردات /٣٩٩ « قر » .

(٣٥) طه /٤٠ .

(٣٦) الأحزاب /٥١ .

وزرياتنا قرة أعين »(٣٧) ، وقوله : « وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك »(٣٨) ، وقوله : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين »(٣٩) ..

وقد اطرد ذلك فى جميع مواقعه فى النظم العالى(٤٠) ، ولعل ذلك - عندى - والله أعلم - هو أن العين بريد الهوى والقلب ، فإذا استقرت فقد لزم الحب .. ويحتمل العكس أيضا - وهو أن استقرار القلب ورضاه يظهر فى العين ، فلا تتقلب فى الاختيارات ..

وبهذا تكون الجملة الثانية : « قرت لدى الفيحاء » تكميلا أو احتراسا ، لدفع توهم غير المراد ، بأن يكون هذا الدمع الكثير قد أضر بها وآلمها ... فبين الشيخ - رضى الله عنه - أنها كلفة به ، ومستريحة له ..

ثم انظر إلى الفصل فى قوله :

قالوا السلام عليك يا خير الورى سمع التحية منهم رداها

لأنه فى تقدير المحاورة بينه وبين المتلقى لإشراكه فى انفعاله ، إذ يترتب عليه ، سؤال عن أقوالهم بعد أن حكى أفعالهم ، « فقالوا السلام » قد فصل على مقتضى الفعل فى المحاورات ..

---

(٣٧) الفرقان /٧٤ .

(٣٨) القصص /٩ .

(٣٩) السجدة /١٧ .

(٤٠) ينظر : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم /٥٤٢ - أ/ محمد فؤاد عبد الباقى .

كذلك فصل بين : « قالوا السلام عليك » وبين : « سمع التحية » لأن الجملة الثانية فى جواب سؤال مقدر : وهل رد عليهم - ﷺ - السلام ؟ وفى ذلك ربط لأجزاء الكلم ..

وفى ذلك توالد الكلام وتناسل الجمل ، « ثم إن فى طى هذه الهواتف ، وترك الإفصاح عنها والتعبير الجهير بها = ضرب من وجازة الكلام ، واختصاره ودمجة ... الخ »(٤١) .

وعرف التحية باللام للعهد الذكرى ، ولم يقل « السلام » كما قال فى الشطر الأول : قالوا « السلام عليك » لإفادة أن الغرض من سلامهم هو تحيته - ﷺ - ..

ثم شىء آخر وهو أن التحية أعم من السلام ، فيدخل فى التحية : حياك الله ، ولك البشرى ، ولقيت الخير(٤٢) .. وبذلك أعاز رد الرسول - ﷺ - بأنه « أحسن منها »(٤٣) .

ثم فى دلالة التحية على الحياة إما فى الدنيا وإما فى الآخرة ، فأصلها من الحياة(٤٤) = إشارة إلى سبب رد الرسول - ﷺ - فى إحداث أثر الحياة فى المسلم عليه ، حياة حقيقية .. لأنها سبب إكرامه .

---

(٤١) ينظر : دلالات التراكيب ٣١٢ .
(٤٢) ينظر الفروق اللغوية ٤٤ .
(٤٣) النساء /٨٦ .
(٤٤) ينظر : المفردات /١٤٠ .

ثم انظر إلى زيادة : « أهدى » فى البيت التالى :

يا سعد من أهدى السلام لأحمد عند المقام بحالة يرضاها

ولم يقل : « يا سعد من سلم » ليدل على الاخلاص فى السلام ، وحتى يكون على رجاء القبول ، فإنه — ﷺ — كان يقبل الهدية ويجازى عليها خيرا ..

ثم فى دلالة « الهدية » — فى أصل وضعها — على التلطف(٤٥) ، والتقرب إلى المهدى إليه ، فإنها تقدم أمام الحاجات(٤٦) = إشارة إلى إجابة طلبه ، وتحقق أمله وهو ما يأتى بعد ذلك فى قوله : نال الشفاعة ... البيت .

ولهذا تجد ارتباطا وثيقا بين إهداء السلام وبين إيثار : « أحمد » من بين أسمائه — ﷺ — إذ إنه من طبعه الحمد والشكر ، فيكافىء بالمزيد ...

وقيد بقوله : « عند المقام بحالة يرضاها » فآثر ذلك المكان ، لأنه أفضل الأمكنة فهو مهبط الأنوار ، وتلك الحالة أرفع حالات الإهداء وأشرفها .. وأولاها بالقبول حتى يربط بين ذلك وبين الإجابة والقبول فى قوله — رضى الله عنه — :

نال الشفاعة والكرامه مذ غدا
ضيف الذى وسع البرية جاها

---

(٤٥) ينظر : المفردات /٥٣٩ .
(٤٦) ينظر : الفروق اللغوية /١٣٨ .

فالفصل بين : « نال الشفاعة » وبين : « أهـدى السلام » لأنه كالنتيجة لمـا تقدم ولا تعطف النتائج على المقدمات ..

ويحتمل أن يكون قوله : « نال الشفاعة » لأنه كالبيان والتفسير لرد السلام ، لأن متضمن للكرامة والشفاعة ..

ووصف الزائر له ـ ﷺ ـ بأنه : « ضيف » لتحقيق الرجـاء بالقبول والكرامة ـ ... فإنه حق على المزور أن يكرم ضيفه ويشفع له.

وإذا كان ـ ﷺ ـ أكرم الناس وأجودهم .. ولم يرد ضـيفا خائبا ولو ابتاع عليه ... فإذا جاء الزائر ضيفا فلا يرد خائبا .. بل يرجع بالهدايا والتحف ..

ولذلك وصفه ـ ﷺ ـ بأنه « وسع البرية جاها » فإذا كان وسع البرية أفيضيق عن تحقيق رجاء من نزل به ضيفا ؟

ولذلك ترى الشيخ ـ رضى الله عنه ـ يعلى من قدر إكرامه ـ ﷺ ـ لزائره بأنه نال « الكرامة والشـفاعة » بالعطف بينهما الذى يقتضى المغايرة فى الصفات ، فالشفاعة فى الآخرة تحقيقا لوعده ـ ﷺ ـ والكرامة فى إجابة سؤاله وتحقيق رجائه ..

وقدم الشفاعة لأنها أهم ، إذ تتعلق بأمر الآخرة ، فقدم ما هو من أمر الدين على ما هو من أمر الدنيا ..

والتعريف بالموصولية فى قوله : « الذى وسع البرية جاها » للدلالة على اشتهار ذلك الوصف بين الخلائق وأنه صار بحيث لا ينكر ، إذ يشترط فيـه العلم بمضمون الصلة(٤٧) ..

---

(٤٧) ينظر : اليعقوبى ١/٣٠٢ ، ٣٠٣ .

ويمكن أن يكون التعريف بالموصولية هنا لجعله ذريعة إلى تحقيق الخبر ، بذكر ما يحقق وقوعه ويثبته ويقرره ، حتى كأن الصلة دليل عليه(٤٨) ..

وإيثار البرية عن البشر ، والناس ، والأنام لمراعاة : « جاها » فإن الجاه لا يكون إلا من البعض ، وهذا ما تدل عليه مادة « برى » لأنها تقتضى تميز الصورة ، وقطعها عن جملة ــ الحيوانات ، بأن أفردهم بصفات ليست لغيرهم(٤٩) ..

المقطع الثالث : العلاقة بين المدينة وساكنها

ــ صلى الله عليه وسلم ــ

سبق الأوائل والأواخر فضله
روح المحب لروضة ناداها

لبت نداء المصطفى وتأهبت
لزيارة المختار فى مسراها

يا طيبة طابت بأكرم مرسل
طابت به حقا وطاب ثراها

سكن النبى بها فصارت روضة
تحكى جنان الخلد فى رؤياها

---

(٤٨) ينظر : الدسوقى ٣١٢/١ ، والسبكى ٣١٢/١ .
(٤٩) ينظر : الفروق اللغوية /٢٢٨ .

يا حبذا دار بها شمس الهـدى
فاقت على شمس الدنا وضحاها

شمس النهار تغيب والشمس التى
فى طيبـة تبقى بنور سـناها

تهدى القـلوب بنـورها وكمالها
ما ضل من يهـدى بنـور هـداها

فالصورة ههنا أرحب ، والتفضيل فيها أوضح ، ذلك أنه لم يكتف بتشبيهه ـ ﷺ ـ بالشمس ، وإنما خلص التشبيه من شوائبه ، ونقاه من مكدراته •• وبهذا دخل فى التشبيه الغريب البعيد وإن كان التشبيه بالشمس قريبا ••• وذلك التصرف فى التشبيه من أرقى أنواع التصرف وهو تفضيل المشبه على المشبه به •

ذلك أن الشمس يطرأ عليها عاملان يقللان من قيمتها :

أولهما : أنها تغيب وتأفل ، بخلاف شمس هدايته ـ ﷺ ـ فهى دائمة الإشعاع والطلوع ••

ثانيهما : أنها تنير المحسوسات والماديات ، وهو العالم الفانى ، وشمسه ـ ﷺ ـ تهدى القلوب والأرواح ، وتنير البصائر •• فهى أتم وأكمل ••

وبهذا تدرك وجه وضع تلك الصورة بين صفاته ـ ﷺ ـ وفضائله ، فالتلاؤم قائم بينهما •••

وفصل بين « الذى وسع البرية جاها » وبين قوله :

سبق الأوائل والأواخـــر فضـــله
روح المحـــب لروضـــة ناداها

لأنه فى تعداد صفاته ــ ﷺ ــ ليس على وجه الجمع والإحصاء ، حتى يتأتى العطف ، ولكن على سبيل البيان ..

وتقديم المفعول : « الأوائل والأواخر » لأنه المهـم فى الغرض المسوق له الكلام ، إذ المراد العموم والشمول ، ولذلك عطف « الأواخر » على : « الأوائل » حتى يكون نصا فى العموم ورافعا لاحتمال المجاز ..

فإذا قال : « سبق الناس فضله » ربما أوهم زمنا خاصا ، أو بعضا خاصا لمـا يحتمله اللفظ من التبعيض ..

أما تقديم المفعول فى الشطر الثانى من البيت : « روح المحب » فهو لإرادة الاختصاص فى الدعوة بمن أحبه دون غيره ..

وأوقع الدعوة على « روح المحب » دون « المحب » لأنها اللبية والمستجيبة ، كما أنها الفاعلة حقيقة بهيمنتها على الجسد ..

ولذلك تجـد الإسناد بعـد ذلك مطـردا فى الروح فى قوله : « لبت » و « تأهبت » ، إذ هى المحركة والمنفعلة بالأحداث ..

وإيثار النداء فى قوله : « لروضة ناداها » على : « دعاها » مثلا لمـا فى النداء من دلالة رفع الصوت بما له معنى ، ثم إنه يقتضى البعد المكانى(٥٠) ... وفى هـذا إشارة إلى وضوح الدعوة ، وأنه قـد أجاب عن بعد ، وتكلف مشاق السفر إليه ــ ﷺ ــ راضيا ..

---

(٥٠) ينظر : الفروق اللغوية /٢٦ ، والمفردات /٤٨٨ .

وفصل بين البيت السابق وبين قوله :

لبت نداء المصطفى وتأهبت لزيارة المختار فى مسراها

لأنه وقع فى جواب سؤال أثارته الجملة الأولى ، فقوله : « روح المحب لروضة ناداها » يثير فى النفس سؤالا عن مدى إجابتها للدعوة ، فكان قوله : « لبت نداء المصطفى » بيانا لسرعتها فى الإجابة ..

ولذلك آثر « لبت » على الإجابة ، لما فى التلبية من معنى المحب فى الإجابة والاخلاص فيها ، والإقامة عليها ، يقول الراغب : « وقولهم : « لبيك » قيل : أصله من لب بالمكان وألب : أقام به ... وقيل : أصله : امرأة لبة أى محبة لولدها ، وقيل : معناه إخلاص لك بعد إخلاص من قولهم : لب الطعام أى : خالصه ، ومنه حسب لباب .. »(٥١) .

ولهذا عطف قوله : « وتأهبت » بالواو دون الفاء مثلا ، لأنه أراد حدوث الأمرين معا ، وأنه لم يكن هذا عقب هذا فتأتى الفاء ، وإنما وقعا مجتمعين عقب الدعوة ..

وانظر إلى الإظهار فى موضع الإضمار فى قوله : لبت نداء المصطفى ... لزيارة المختار » وكان مقتضى الظاهر القول : « لبت نداءه .. لزيارته » ولكنه أظهر لما فى المظهر من بيان علة التلبية والزيارة ، بأنه المصطفى والمختار ، فهو حقيق بالإجابة والزيارة .. ـ كما تقدم ـ .

ثم فى الإظهار معنى آخر ، وهو التفخيم والتعظيم بذكر اسمه

---

(٥١) المفردات /٤٤٧ .

— ﷺ — وذلك لاحضار هيبة وجلال المزور ، وهذا لا ينهض به الضمير ، لأنه يبقى فى الاسم الظاهر اشعاعاته المختلفة عند المتلقى .. وفى هذا ما يقوى داعى الزيارة .. كما ذكروا (٥٢) فى أغراض الإظهار فى موضع الإضمار وإيثار اللام فى الموضعين : « لروضة ناداها » ، و « لزيارة المختار » لتخليص الزيارة لهذا الغرض دون سواه ...

ثم تأمل تكرار الطيب فى تقلباته المختلفة ، واشتقاقاته المتنوعة ، بين الاسم والفعل ، فى قوله — رضى الله عنه — :

يا طيبة طابت بأكرم مرسل طابت به حقا وطاب ثراها

فإنه صدى لانفعال الشيخ بتلك المعانى التى أثارها « فالتكرير الذى يصحبه هو صوت التعبير عن تأكد مدلول اللفظ المكرر فى نفس المادح ، سواء كان الممدوح شخصا أو بلدا أو معنى أو غير ذلك مما يملك الإعجاب .. »(٥٣) .

ولذلك تدرك وجه تكرار مادة « طيب » فى أربعة مواضع منه ، فى قوله : « طيبة » ، و « طابت » ، و « طابت به حقا » ، و « طاب » وذلك حتى يشيع فى الأفق الطيب فى جميع أنحاء المكان ... ثم ما فى ذلك من التلاؤم بين الأرض وساكنها ، حتى كأن الطبيعة وما فيها قد تبدلت وتغيرت بحيث شملها الطيب ... ولذلك جاء عقبه مباشرة قوله :

---

(٥٢) ينظر المطول وحاشية عبد الحكيم عليه ٢/٤٥٧ .

(٥٣) ينظر : التكرير بين المثير والتأثير /١٧١ .

« سكن النبى بها فصارت روضة » فإنه بيان لهذا التغيير والانفعال بالحدث ..

وفى التكرير ـ أيضا ـ تعديد للمتعلق ، ففى الموضع الأول وصف ذاتى للمكان ، وفى الثانى لتحقيق الوصف وتقريره .. وفى الثالث يتعلق بالنبى ـ ﷺ ـ ..

وإيثار هـذا الاسم من أسماء المدينة دون غيره لملائمته لحال الزيارة ، وما فيها من نسمات المزور ، وعطره .. ثم ما فيها من تساوق مع التركيز على الطيب والمسك فى الأبيات المتقدمة ولذلك ترى البوصيرى يؤثر هـذا الاسم عند الزيارة فى قوله :

فرمينا بها الفجاج إلى طيـ ـبة والسير بالمطايا وماء
وكأن الأرجاء ينشر نشر المـ ـسك فيها الجنوب والجربياء

« فكأن المسك سكب سكبا على تلك البقاع فما أطيبها بقعة فيها البهاء والنور ، وكل ريح تهب عليك تحمل أزكى العطور جنوبيةكانت أم شمالية . »(٥٤) .

وجاءت الأفعال كلها على نظم الماضى ـ مع استمرار الطيب بوجود سببه ـ ﷺ ـ لإفادة تحقق الثبوت ..

ولذلك أكد الكلام بالمصدر : « طابت به حقا » لنفى توهم المجاز ، فالأمر واقع على حقيقته ـ فهو محس مشاهد ـ ..

---

(٥٤) الهمزية فى مدح خير البرية /١٨٥ د/ عبد العظيم المطعنى ـ دار الأنصار ـ القاهرة .

وبهذا تدرك سر الفصل بين تلك الجمل : « يا طيبة طابت .. طابت به حقا » لأنه أراد تأكيد المعنى الأول ... وعطف : « وطاب ثراها » لأن القصد إلى الترقى فى الطيب ، بحيث تعدى إلى التراب ..

وتأمل الفصل بين : « وطاب ثراها » وبين قوله :

سكن النبى بها فصارت روضة تحكى جنان الخلد فى رؤياها

لأن ذلك كالتفسير والبيان للطيب المتقدم ، وشرح سببه ، بأنه من سكنى النبى — ﷺ — وفى إيثار « سكن » على الإقامة ، لما فيها من معنى الاستيطان والثبوت ، فضلا عما فيه من معنى السكن وهو الهدوء فى الشىء »(٥٥) ..

وفى ذكر المسند إليه : « سكن النبى » — مع أن مقتضى الظاهر حذفه للعلم به من السياق والسياق — لإرادة التعظيم والتشريف بالنص على الوصف المقتضى لذلك ..

وعطف : « فصارت روضة» بالفاء دون غيرها من حروف العطف للإشارة إلى سرعة انفعال الأرض بقدومه — ﷺ — وتغيرها من طبيعتها المعروفة إلى كونها روضة حقيقية من رياض الجنة ..

وتغيير النظم من الماضى فى : « سكن — فصارت » إلى المضارع فى : « تحكى » لإرادة التشخيص والتصوير ، حتى كأن المتلقى يرى ذلك أمام ناظريه ..

وفى إيثار الجمع : « جنان » على : « جنة » لإضفاء المزيد من

---

(٥٥) ينظر : نظم الدرر ١٠٣/١ ، والمفردات /٢٣٦ .

التعظيم والتفخيم ، حتى كأن الروضة قد اشتملت على ما فى الجنان كلها من بهجات وكرامات ..

وفى إضافة « جنان » إلى الخلد معنى الاحتراز عن توهم جنان الدنيا ، ثم ما فى الإضافة من معنى التفخيم ..

والتقييد بـ : « فى رؤياها » لتحقيق التصوير ، وتقرير التشبيه ... كما أن القيد كاشف عن وجه الشبه ، وأنها تحكيها فى الرؤية ، ولو كنا نراها غير ذلك ، ولكنها فى الحقيقة - كما تقدم - روضة من رياض الجنة ..

ثم تأمل التشبيه البعيد الغريب ، وكيف استحال من الابتذال إلى البعد عن طريق التفاضل فى قول الشيخ - رضى الله عنه - :

يا حبذا دار بها شمس الهدى
فاقت على شمس الدنا وضحاها

شمس النهار تغيب والشمس التى
فى طيبة تبقى بنور سناها

تهدى القلوب بنورها وكمالها
ما ضل من يهدى بنور هداها

حيث طابق بين « شمس الدنا » ، و « شمس الهدى » لإرادة التفاوت البين بين نوره - ﷺ - ونور الشمس بتفضيل عجيب ..

وتشبيهه - ﷺ - بالشمس ، ثم تفضيل نوره ، شائع على ألسنة المادحين ودائر فى كلامهم ، تأمل قول البوصيرى :

شمس فضل تحقق الظن فيه أنه الشمس رفعة وضياء
فإذا ما ضحا محا نوره الظل وقد أثبت الظلال الضحاء
أمع الصبح للنجوم تجل أم مع الشمس للظلام بقاء

فالتشبيه بالشمس فى رفعتها وضيائها .. ثم فضل نوره على نور الشمس بأنه لا ذال له ، أما الشمس فلا تمحو كل الظلال(٥٦) .. هذا هو التفضيل عند البوصيرى .

أما التفضيل عند الشيخ فكان مفصلا على وجوه مختلفة ..

ـ فقد أضاف : « شمس » إلى « الهدى » فى قوله : « شمس الهدى » ليشير إلى الغرض المراد ، ويطابق بينها وبين « شمس الدنا » وهذه المطابقة تظهر التفاوت عند أدنى تأمل .. فالأولى « الهدى » معنوية وباقية ، والثانية محسوسة وفانية ـ ولذلك أضيفت إلى « الدنا » ..

ولذلك عدى الفعل بـ « على » فى قوله : « فاقت على » ليفيد الظهور ، والاستعلاء المستفاد من الحرف « على » .

وفصل بين : « شمس النهار تغيب » وبين : « فاقت على شمس الدنا » لأنه فى معرض التعليل للتفضيل ، ثم ما فى الجملة الأولى من سؤال عن وجه التفاضل ، فكان قوله : « شمس النهار » جوابا عنه ..

وفى قوله : « تهدى القلوب » وجه ثان فى التفضيل ، ولذلك عبر بالمضارع لإرادة تكرر حدوث الفعل آنا فآنا .. ثم ما فيه من استحضار الصورة عند المتلقى ..

---

(٥٦) ينظر : الهمزية : عرض وشرح وتحليل /١١٨ .

وفصل بين قوله : شمس النهـــار تغيب •• البيت وبين قوله : « تهدى القلوب بنورها •• » لأنه فى تعداد الفضائل على وجـــه الاستقلال ، كأن كل واحدة منهـا تكفى لإثبـات الفضل الســابق ، والتسليم به ••

كذلك فصل بين : « تهدى القلوب بنورها » ، وبين : « ما ضل من يهدى •• » لأن الجملة الثانية كالنتيجة للكلام السابق •• ولا تعطف النتائج على المقـدمات ••

وأوقع الهـــداية على : « القلوب » والمهـدى فى الحقيقـة : « الانسان » ، لأنه العمدة فى بقية الجوارح ، تصلح بصلاحه وتفسد بفساده ، فلإبراز قوة السببية أوقع الهداية على القلب ••

المقطع الرابع : أمل •• وشكوى ••

فإذا وصلت إلى المدينـــة زائـرا
عرج على الفيحـاء فى عليـــاها
وقل الســلام عليك يا خـير الورى
يا خـير من وطىء الثرى يا طـــه
يا رحمـة الله التى قـد أرســلت
للعـــالمين وللورى أهـــداها
ما خـابت الروح التى قـد أقبلـت
تهـدى الســلام عليك يا بشراها
روح أتتك من البعـــاد مشوقة
ترجو الرضا لمـا أتت عمـــاها

وشـــكت إليك من الزمان وحـــــاله
مع شـــكرها لله في شـــكواها
علمت بأنك حصـــــنها ومنـــارها
فأتت إليك لعلهـــا ترضـــــاها

يبدو الغرض جليا — هنا — في الأمل والشكوى .. لذلك قـــدم له الشيخ — رضى الله عنه — بتعجيل الثناء عليه — ﷺ — حتى يمهد لمـــا سيأتي بعـــد ..

ولذلك عطف بالفاء في قوله : « فإذا وصلت » وقد أعان حـــرف الفاء على اختصار الرحلة وقطع المسافة الطويلة ، فها هو في المدينـــة بين جنباتها ..

كذلك أومأ « الفـــاء » على إبراز العجلة والسرعة في الزيادة عند الوصول إلى المدينة ، لأن الغرض الرئيس فيها ..

وفي تعدية الفعل : « وصلت » بـــ « إلى » معنى يغاير تعـــدية الفعل بنفسه ، ذلك أنه يشعر بأنه لم يعرج في طريقـــه إلى غيرها من البلاد ، بل كان قصده إليها فقط ، وهمته متجهة نحوها بخلاف تعـــدية الفعل بنفسه : « وصلت المدينة .. » فإنه لا يستلزم منه ذلك ، ولا يمنع من أن يكون قد نزل بغيرها ..

والتعريف في : « المدينة » للعهد الذهني ، فـــلا ينصرف الذهن إلا إليها ، وهـــذا يدل على اشتهار أمرها حتى صار شيئا بدهيا ..

والتقييد بالحال : « زائرا » لبيان الغرض من : « الزيارة » ولذلك حذف المتعلق لاستلزام المقام له وهو زيارة النبي — ﷺ — ..

وضمير الخطاب - كما هو شائع فى القصيدة كلها - لا يقصد به مخاطب معين ، بل المراد عموم الخطاب وكل من يتأتى منه الوصول والقول ..

والأمر فى : « عرج » ، و « قل » على حقيقته من الوجوب ، لأن من الجفاء الوصول إلى المدينة من دون إهداء السلام إليه وزيارته .. ولذلك عطف : « قل » لإرادة الجمع بين الأمرين كليهما ، تتميما للفائدة ..

وانظر إلى تكرار النداء فى أربعة مواضع متتالية فى قوله :

وقل السلام عليك يا خير الورى ... يا خير من وطىء الثرى يا طه

يا رحمة الله ...

مع اتحاد المنادى فى تلك المواضع ، وذلك ليشيع فى الجو جانب الاستغاثة به - ﷺ - ويؤكد الطلب ، ويقرر الاستدعاء ، فالتكرير يفجر إحساسا بالشكوى ...

وتقديم السلام عليه والمدح له - ﷺ - بين يدى الشكوى والرجاء لإرادة تحقيق الوقوع ، كما يقدم السائل بين يدى مسألته السلام والمدح لمن رجاه وسأله - وهذا من التلطف فى المسألة - ..

وفصل بين تلك الجمل لاتحادها معنى ، ولأنه فى تعديد صفات له - ﷺ - على وجه الاستقلال ..

وآثر الشيخ - رضى الله عنه - من الألفاظ ما يبرز جانب الشكوى ويعين على تحقيق الأمل فالنداء بـ : « يا » فى جميع مواضعه وهى النداء البعيد حسا أو معنى ، للدلالة على تذلل الداعى وأنه بعيد عن

مظان القربى ، وما فيها من معنى النداء واستنطالة الصوت تحكى جانب الضراعة والاستغاثة ..

وإيثار جانب الرحمة والخيرية فى صفاته - ﷺ - زيادة فى تحقيق الرجاء ، فإنه رحمة وخير كله ، وهذا يقتضى رحمته فى شكواه ..

ولذلك أضاف الرحمة إلى المولى - عز وجل - فى قوله : « يا رحمة الله » لتعظيم تلك الرحمة بعظمة المستمدة منه وهو المولى عز وجل - فاكتسبت من المضاف إليه ما يلائمه من صفات ..

ولذلك جاء القيد « للعالمين » مناسبا لعظيم الرحمة ، باعتبار كثرة متعلقها وهو « العالمين » فالعالم « كل ما سوى الله عز وجل »(٥٧) ، وهذا يفيد العموم ..

وتقديم : « للورى » على : « أهداها » فى قوله : « وللورى أهداها » لتنسيق القوافى فى الأبيات على الهاء المطلقة .. وللاهتمام بشأن الورى فى الرسالة ، وأنها فى صالحهم ، ذلك أن الورى لا يقع إلا على الأحياء دون الأموات(٥٨) ، ثم فى ذلك معنى آخر ، وهو أنه لا يستجيب لرحمته - ﷺ - إلا من كان حيا حياة حقيقية .. أما ميت القلب والاعتقاد فلا ينتفع بها ..

ثم توصل إلى الغرض الرئيس من هذا المقطع بعد التقدمة له فى قوله :

---

(٥٧) ينظر : الكشاف ١/٨ ، والمفردات /٣٤٤ .

(٥٨) ينظر : الفروق اللغوية /٢٢٧ .

ما خـابت الروح التى قـد أقبـلت
تهـدى السـلام عليـك يا بشراها

روح أتتك من البعـاد مشوقة
ترجو الرضا لمـا أتت عمـاها

وشـكت إليك من الزمان وحـاله
مع شـكرها لله فى شـكواها

علمت بأنك حصـنها ومنـارها
فأتت إليك لعلهـا ترضـاها

ويلاحظ أن الإسناد فى تلك الأفعـال قـد وقع على الروح دون الجسد ، وهى غير منفكة عنه ، بل هو المتصف بهذه الأفعال فى الظاهر ، ولكن لمـا كان الحنين والهيام متعلقـا بها نسب إليها تلك الأفعـال السابقة .. لمـا لها من مزيد أثر .. ، واتساقا مع بقية النظم فى المواضع المتقدمة وتنكير « روح » للإبهام ، هضما للنفس ، لتدخل بين الأرواح التى أتت إليه ـ ﷺ ـ .. دلالة على كثرة الزائرين ..

والتقييد بقوله : « من البعـاد » لبيان بعـد السـفر ، ومشقة الطريق .. وهـذا أدل على الإخـلاص فى الزيارة ، وأدعى لقبول الرجاء ... لأنها ما تحملت المتاعب وبعد المسافة .. إلا لحبها وإخلاصها فاستحقت القبول ..

ثم قال : « مشوقة » ليشير إلى عدم الامتعاض من المشقة ، والكره للمتاعب ، وعدم التضجر من البعد ، فالشوق قد يسر الصعب وذلله .. والحب قد قصر البعيد وقربه ..

وأطلق فى قوله : فى « الرضا » ولم يقيده بنوع معين ليشمل كل مرضى ، ويعم كل مأمول بخلاف ما لو قيده فى معين ..

وتأمل الاحتراس فى قوله : « مع شكرها لله فى شكواها » وانظر إلى موقعه بعد ما قدم من الشكوى ، لئلا يظن به الضجر فى قوله : « وشكت إليك من الزمان .. » وليفيد أن ذلك من قبيل الدعاء الذى لا يعارض الرضا والتسليم ..

وأطلق فى الشكوى ، فلم يقيد نوعها ، ليشمل كل ما هو مكروه للنفس ، ومعارض للشرع ، ومخالف للهدى .

ونسب الشكوى إلى الزمان وحاله ، والمراد أهله وأصحابه على المجاز العقلى لإفادة المبالغة فى تغيرهم وفسادهم حتى تعدى ذلك إلى الزمن نفسه ، وليفيد أن ذلك قد شمل جميع الأوقات التى تقع فى الزمان ، ليلا ونهارا ..

وفصل بين قوله : «علمت بأنك ..» وبين « شكت إليك » لأنه فى مقام التعليل للشكوى ، إذ تثير الجملة الأولى سؤالا عن علة شكواها إليه .. فكان قوله : « علمت .. » جوابا عنه .

وإيثار العلم على المعرفة أو غيرها لأن العلم « هو اعتقاد الشىء على ما هو به على سبيل الثقة »(٥٩) ، وهذا يدل على قوة المعرفة ..

والجمع بين : « حصنها ومنارها » لإثبات وصفى المنعة والحرز ،

---

(٥٩) الفروق اللغوية /٦٣ .

والهداية والتوفيق له ــ ﷺ ــ وهــذا أنسب بمقام الشكوى ، لأنها تفيد التأذى من شىء » ثم طلب الرشــد والهــداية ، فــكان قوله : « حصنها » لإرادة منع الضرر عنها •• و « منارها » لإفادة توفيقهــا وهدايتها ••

وعطف بالفاء فى قوله : « فأتت إليك » لإرادة التسبب : أى : إن علمها بذلك دعاها إلى المجىء بسرعة ••

وعدى الفعل بــ « إلى » « فأتت إليك » وكان الظاهر أن يعــدى بنفسه « فأتتك » لإرادة القصد الرئيس إليه ••

وانظر إلى « لعل » فى قوله : «لعلها ترضــاها » التى تفيد عدم القطع فى وقوع الرجاء ، لأن هكذا حال المؤمن بين الخوف والرجاء •• وإن كان الغالب من النظم قبول الرجاء من كرم المرجو وجوده فى قوله فى المقطع الأخير : « فلأنت أكرم من أتتك وفودها •• » •

المقطع الخامس : داعى القبول ••• وسببه

فلأنت أكرم من أتتك وفــــودها
من كل فــج قد قبلت ثنــاها
وأتوك فى دار الضيافة بعــده
شربوا كئوس الحب من يمنــاها
وقفــوا وقــوف المكرمين كأنهم
أملاك رب العــرش قــد أدناها
عرفوا المقام ومن به فتــأدبوا
فى روضــة شرفت بمن سماها

تمثل تلك القطعة أسباب قبول الرجاء المتقدم ، وداعي الرضـــا ، فإنه أكرم مزور ••• وقد جاءوا إليه فى دار الضـــيافة متأدبين •• فاستحقوا الإكرام ••

ولذلك عطف بالفاء فى قوله : « فلأنت » على قوله : « ترضاها » لإرادة السببية والسرعة : أى لأنك كذلك ••

وأكد باللام ــ على غير نسق النظم فى القصيدة كلها ، حيث جاءت فيها الأخبار مرسلة عن التأكيد ــ لتقوية باعث الرجاء فى نفسه ، ودلالة على امتلاء نفسه بالأمل فى تحقيق الإكرام لتحقيق سببه ••

وأفعل التفضيل « أكرم » على بابه من المفاضلة ، وحقيقـــة من الموازنة ، استثارة ــ للعواطف ، أى إذا كان الكرماء لا يردون ضيفهم خائبا ، فما بالك بأكرمهم ؟

والإخبار بصيغة العموم فى المفضل عليه « من أتتك وفودها » ليعم كل من يقع فى الخاطر من الكرماء ••

وتأمل التقييد فى قوله : فى دار الضيافة ، فإنه لأحد أمرين :

ــ إما لبيان داعى قبول الرجاء ، فإنه ضيف عنده ــ ﷺ ــ وهو أكرم مزور ••

ــ وإما لالتماس الفضل العظيم منه ــ ﷺ ــ فإن مثله يعطى الجـــزيل ••

وانظر إلى تغيير النظم إلى : « دار الضيافة » بدلا من : « إنى ضيف » أو : « أتوك ضيوفا » ــ مثلا ــ للدلالة على أنها كذلك ، وأن شأنها الذى كانت عليـــه استضافة الناس ••

والإضافة فى قوله : « كئوس الحب » للاحتراز عما يتوهم من كئوس الدنا ، ثم ما فى المضاف من سعادة وبهجة ورضا ، ولذا قال : « من يمناها » لأن اليمين يدل على الرضا ..

والتعبير بالشراب فى : « شربوا » دال على كثرة العطاء ، وتنوعه ، وهذا ما يتلاءم مع جمع « كأس » فى قوله : « كئوس » .

وانظر إلى العطف بالفاء فى قوله : « فتعطروا .. » وما فيه من بيان سرعة سريان أثر الشراب فى أبدانهم .. كذلك أثر الزيارة على نفوسهم .. لأنهم فى هوى إليها .. ولذلك قال : « لكل من يهواها » فهو الذى تطيب له ويطيب لها ..

والتعريف بالموصولية فى قوله : « ومن به » لإرادة التعظيم والتفخيم ، وأنه لجلاله — ﷺ — قد ضاق به الكلام عن أن يحمل صفاته ويحيط بها فكان الموصول كفيلا بذلك ..

ثم انظر إلى تلك الصورة الجميلة والجليلة للواقفين بالروضة فى قوله :

وقفوا وقوف المكرمين كأنهم أملاك رب العرش قد أدناها

وما فيها من جلال الملائكة ، وإكرام المولى — عز وجل — لهم ... لتدرك مدى الهيبة والوقار ، والأنوار والأسرار التى تحيط بالزائرين ..

حسن البـــدء والختـــام

ثم ترى فى ختام القصيدة ردا للعجز على الصدر ، وتلاؤما بين البدء والختام ، ذلك أن فاتحتها فى الصلاة على النبى — ﷺ — فى قوله :

يا رب صل على النبى محمد مقبولة تهدى له يرضاها

ثم ختمت بقوله :

ثم الصـــلاة على النبى محـــــمد
مقبولة تهـــدى له يرضـــاها
والآل والأصـــحاب أرباب التقى
وكذا السلام هـــدية يهـــداها
ما الجعفرى يتلو المديح لأحمـــد
دار الحبيب أحق أن تهـــــواها

فافتتحت بالصلاة على النبى — ﷺ — وختمت بالصـــلاة على النبى — ﷺ — لأن ذلك أدعى لقبول ما بينهما من رجاء ودعاء ، فإنه — عز وجل — يقبل الصلاة عليه — ﷺ — يقينا ، وهو — عز وجل — أكرم من يقبل الصلاة الأولى والآخرة ولا يرد مابينهما من دعاء — وهذا من أدب الدعاء ..

ومجىء : « ثم » الدالة على التراخى فى آخر القصيدة ، مستعملة فى التراخى الرتبى أوفق ، لأن الصـــلاة على النبى — ﷺ — أعلى درجات المديح ..

والمخالفة بين الإنشاء فى أول القصيدة : « يا رب صلى .. » وبين الخبر فى خاتمتها : « ثم الصلاة » أدل على الإجابة ، حتى كأن القبول قد وقع فهو يخبر عنه ..

وشيوع القبول والرضا فى البدء والختام يتناسق مع سياق القصيدة ومقامها ، لأنها فى الزيارة النبوية ، والقبول هو شغل الشيخ الشاغل ، وغرضه الدافع له والمسيطر عليه .

ووصف الآل والأصحاب بـ « أرباب التقى » للكشف عن حالهم ، لا للاحتراز ، لأن كلهم كذلك ..

والقيد فى قوله : « ما الجعفرى يتلو المديح لأحمد » لا يقصد به الحصر فى وقت معين وإنما المراد عموم الأوقات ، واستدامة الصلاة عليه — ﷺ — وإنما آثر القيد رغبة فى أن يضوع مديحه فى النبى — ﷺ — وينتشر فلا يخلو عن وقت ..

ثم ختمت القصيدة بما بدأت به : « دار الحبيب أحق أن تهواها » وكأن الشيخ — رضى الله عنه — عندما أتم زيارته .. ثم عاد إلى وطنه حنت نفسه مرة أخرى إلى المدينة ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه فى كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم ..

وكتبه دكتور
على عبد الحميد أحمد عيسى
مدرس البلاغة والنقد بالكلية

« مصادر البحث ومراجعه »

١ — الإيضاح — دار الجيل بيروت .

٢ — البحر المحيط — ط دار الفكر ١٤١٢هـ — ١٩٩٢م .

٣ — البرهان فى علوم القرآن — الزركشى — تح محمد أبو الفضل إبراهيم — دار التراث .

٤ — تذوق بلاغى لقصيدة أمية بن أبى الصلت فى العتاب : غذوتك مولودا — د/ دخيل الله محمد الصحفى — مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة — العدد السابع عشر ١٤١٨هـ — ١٩٩٨م .

٥ — التكرير بين المثير والتأثير د/ عز الدين على السيد — دار الطباعة المحمدية .

٦ — التكرير فى الشعر العربى د/ فاطمة محجوب — مجلة الشعر العدد الثامن أكتوبر ١٩٧٧م .

٧ — حاشية الدسوقى « شروح » دار السرور بيروت .

٨ — حاشية عبد الحكيم السيلكون على المطول « هامش المطول » .

٩ — دلائل الإعجاز — قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر — مطبعة المدنى — ط ثالثة ١٤١٣هـ — ١٩٩٢م .

١٠ — دلالات التراكيب د/ محمد أبو موسى — مكتبة وهبة .

١١ — ديوان الجعفرى ج ٧ — دار جوامع الكلم .

١٢ — عروس الأفراح — ابن السبكى « شروح » .

١٣ - الفروق اللغوية - أبو هلال العسكرى - تح حسام الدين القدسى - دار الكتب العلمية بيروت •

١٤ - فتح الكشاف - الزمخشرى - دار المعرفة •

١٥ - المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها د/ عبد الله الطيب المجذوب •

١٦ - المطول - سعد الدين - مطبعة والدة عباس •

١٧ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن - محمد فؤاد عبد الباقى •

١٨ - المفردات - الراغب الأصفهانى - كتاب الجمهورية - ١٩٩١م•

١٩ - مواهب الفتاح - ابن يعقوب المغربى « شروح » •

٢٠ - نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور - البقاعى - تحليل عبد الرزاق غالب المهدى - دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م •

٢١ - الهمزية فى مدح خير البرية •• عرض وشرح وتحليل د/ عبد العظيم المطعنى - دار الأنصار •